الحلقة التاسعة والعشرون

(بيروت.. قصر علي باشا.. شهربان وعثمان ومصطفى في الردهة.. سليمان وعلي يلعبان سويا في الحديقة بالكرة)
شهربان: حدثني خالد عن الأوضاع في تركيا فهو لا ينوي العودة الى هناك.. ولكن عمتكم جلنار لا تريد البقاء في لبنان، فهناك دار أبيها وأختها أليسّا، وشهنازادا المتزوجة بالأخ الصغير لعبد الحميد.. وهي تقول بأن الحاكم ظل الله على الأرض.. وعليهم أن يطيعوه في كل أحواله، فلعله يرى غير الذي يراه خالد من تعقد الأمور.. ولكن وأنا أكثر خبرة منها، أرى أن الطريق الذي يتبعه عبد الحميد لن يكون في صالح تركيا ولا الولايات، وأن أزمة ما ستحدث هناك لا أعرف نتائجها ولا يمكن لي أن أتنبأ بتأثيرها علينا.. ان والدكم كان يعارض هذا التوجه فنفاه عبد العزيزالى حلب كما تذكرون.. ولا أريد أن يتكرر الأمر بالنسبة اليكم.. فتكونوا مهددين وأنا هنا وحدي في قلق دائم عليكم.. أريد أن يجتمع شملنا في مكان واحد ريثما تنجلي الأمور..
عثمان: ودراستنا، ومستقبلنا؟ ماذا نفعل هنا في هذه البلاد ونحن لا نتقن العربية لننتسب الى ثانوياتها، ولا الإنجليزية لننتسب الى جامعتها.. أم أنك راغبة في بقائنا معك لتزيني بنا قصرك على حساب مستقبلنا وقد أصبحت لك أسرة فيه غير أسرتنا؟
شهربان: لا تتحدث بهذه الطريقة ياعثمان، وتظلم رجلا يرعاكم بحنان الأب وعطفه، ويقلقه مصيركم كما يقلقني.. انه لا يكسب بزواجه مني شيئا وأنا أكسب منه كل شيئ.. حمايته لي ولمصالحي ولأولادي.. هل تلومه على حبه لي؟ لقد تخلى عن منصب وزير في مالية طرابلس الغرب من أجلي.. ان كل ما يجنيه في هذا البلد هو من عرق جبينه وجهده وسهر الليالي في حله لمشاكل الناس الذين يوكلونه في أمورهم ويعطيني ما يجنيه لأتدبر أمري..
عثمان: ألا تنفقين من المال الذي تركه لك جدي؟
شهربان: لم يترك لي إلا هذا القصر الذي سنعيش كلنا فيه.. أما الراتب التقاعدي فلا يصرف حتى للعاملين في الفوج بسبب الأزمة المالية التي تعاني منها تركيا.. ولما عرضت على محمود أن يبيع لي صيغتي رفض ذلك، وتولى هو المسؤولية عن كل شيء ولم ينقص لي ترفي الذي أعيش فيه.. لقد أقنعت جلنار في البقاء في ضيافتي حتى يجد خالد له عملا.. فخالد انسان وفيّ يشبه محمود في صفاته.. لقد بقي عشرة أعوام لا يفكر

بالزواج بعد وفاة أخت محمود فريدة التي كانت حبيبته وزوجته في فترة مرضها الذي لم يمهلها طويلا.. قلت لجلنار بأن جدران القصور لايمكن لها أن تعوّضها عن حب رجل كخالد.. ولا يجدر بها أن تتخلى عنه لأنه بلا عمل اليوم، وتقيس ظروفها بظروف أختها شاهنزادا.. فما يدريها بأنها لا تعيش في تعاسة في جو مؤامرات القصر المحموم؟..

(2) (منزل الأسير.. الأسيرعلى طاولته يعدّ محاضرة اليوم التالي في الجامعة.. يسمع وقع حوافر الخيل تقف عند بابه.. ينظر من النافذة.. يرى شابا بلباس إفرنجي، ينزل من العربة وينقد العربجي أجره فيناوله الحقيبتان.. يطرق الزائر على الباب.. الأسير (لنفسه) لعله غريب أخطأ العنوان.. يفتح الباب فاذا به وجها لوجه أمام حسن.. يعانقه فرحا بلقائه)

الأسير: أهي زيارة أم عودة؟

حسن: بل عودة، لقد غيّرت فكري في البقاء في مصر.. زودني أخي محمد بمبلغ من المال لأفتتح عيادة في بيروت..

الأسير: بارك الله فيك يا حسن! ها هو إبن يحقق لي حلمي في أن يعود ويصبح طبيبا في بلده.. كيف كان نجاحك؟

حسن: بامتياز.. تذكر أنني منذ صغري كنت أهتم بالنباتات الطبية، ولقد اكتشفت أنواعا منها في تركيا وفي لبنان وفي مصر وسينا، وأجريت عليها التجارب بنفسي.. وألفت كتابا بهذا الخصوص أوضحت فيه المنافع التي يحصل عليها المريض من كل نوع في معالجة الأمراض المختلفة التي يصاب بها.. ان الكتاب مخطوط لم أطبعه بعد..

الأسير: أعطنيه فأطبعه لك في مركز لسان الحال.. ولكن بالنسبة للأمراض التي يصاب بها الإنسان، والتي تحتاج الى جراحة.. هل أنت جراح؟

حسن: كلا، ان اختصاصي هو في الأمراض الداخلية العامة التي تصيب الإنسان في مختلف الأعمار.. تشخيصها وعلاجها..

الأسير: سأجد لك عملا في المدرسة الطبية التي أسسها فانديك، ومن حسن حظك أنه عاد من أميركا، ولن يرفض لي طلبا..

حسن: سنتحدث في هذا فيما بعد.. أخبرني عن أحوالكم جميعا.. من ولد، ومن تزوج ومن...؟

الأسير: لقد ولد في الأسرة بنت لمحمود سماها باكيزا، وولد في نفس الوقت صبي من زوجتي فاطمة سميناه عبد الرحمن.. أما مصطفى فابنته حنيفة خطبت لابن صديق له مهندس، وهي تتجهز لعرسها، وأما

ثريا فهي راغبة في استئناف دراستها، وسليمى دخلت هذا العام المدرسة الإبتدائية.. وهي ونجوى رفيقتا علي ابن شهربان..
حسن: وأمي؟ كيف صحتها؟
الأسير: صحتها ممتازة بسبب شربها الدائم لعصير البرتقال.. تصنع منه المربى، ومن قشر الكباد الحلوى اللذيذة، لقد زودتني من العصير المركز ومن المربى والكباد في الأسبوع الماضي وسآتيك منه، وأعمل الشاي..
حسن: لا تغلّب نفسك.. سننزل الى المطعم ونتعشى معا.. لم تخبرني عن الباقي.. كيف انسجام أمي مع فاطمة؟
الأسير: انهما سمن على عسل.. خصوصا بعد ولادة فاطمة لفريدة.. هي التي قامت برعايتها.. وبعد أن ولد عبد الرحمن، أصبحت مشغولة به أيضا، ولا تقوم أمه الاّ بالإرضاع..
حسن: وكيف حال محمود وشهربان؟
الأسير: في انسجام تام.. ان بيته يغصّ اليوم بأبناء شهربان الثلاثة الذين انضموا الى أمهم بعد وفاة جدتهم، وفي جناح الضيوف ينزل خالد وزوجته جلنار وهي قريبة شهربان، أخت المرحوم الأمير مراد.. ناهيك عن الجواري الثلاثة والسائقين والطباخ..
حسن: ماهي أعمار أبناء شهربان؟
الأسير: أكبر أبنائها عثمان في الخامسة عشرة ويليه مصطفي أصغر بعامين ثم سليمان في الحادية عشرة.. وأخيرا علي الذي عرفته طفلا صغيرا دخل هذا العام المدرسة الإبتدائية.. حين زرتهم وجدتها قلقة بشأن دراستهم، فهم لا يعرفون الا القليل من اللغة العربية، وعليهم أن يدرسوا دراسة خاصة حتى ينالوا من الثقافة ما يناله أقرانهم في استنبول.. ان عثمان ومصطفى يرغبان في دراسة الطب ولا يميلان لدخول الكلية العسكرية كما فعل والدهما.. وخالد يدرسهما العربية من الترجمات التي تقوم بها الكلية الطبية عن الكتب الإنجليزية لفانديك والدكتور جورج بوست.. ليست هناك ترجمات وافية في اللغة العربية في مدرسة الطب، والطلاب ينسخون الترجمات في دفاترهم إعدادا لطباعتها فتصبح منهجا دراسيا لمن يليهم..
حسن: أنا جئت بالكتب التي كنت أدرسها في مصر باللغة الإنجليزية ويمكنني أن أترجم منها محاضراتي وأضعها تحت تصرف المدرسة لطباعتها..

الأسير: (مغتبطا) سأذهب واياك في الغد لزيارة فانديك.. سيجدك الرجل المناسب للقيام بعدة نشاطات في الكلية الناشئة..

(3) (قصر علي باشا.. شهربان وعثمان ومصطفى في الردهة.. سليمان وعلي يلعبان الكرة في الحديقة)

شهربان: ان والد محمود يدرّس اللغة العربية في الجامعة الأمريكية ويعرف أساتذة الطب فيها، ولهم كتب عديدة في الطب الجراحي وأصول التشريح فيه مئات من الرسوم وصور أعضاء الجسم، وكتاب في الباثالوجيا الداخلية التي تبحث في مبادئ الطب البشري النظري والعملي.. وهذه الكتب مكتوبة بالإنجليزية ولكنها تترجم أولا بأول الى العربية.. لقد أهدانا الشيخ هذه الكتب وأرسلها مع محمود لتضطلعوا عليها.. ولكن هناك خبر أهم هو عودة أخي محمود من مصر، وهو طبيب درس في الكلية الأمريكية، وعاد ومعه كتبه التي درس فيها هناك.. وقد عين كطبيب مساعد لمؤسس المدرسة الطبية فانديك.. والآن عليكما أن تختارا، إما دراسة اللغة الانجليزية فتفهما محتوى الكتب، أو العربية لتفهما ترجمتها..

عثمان ومصطفى: نفضل دراسة الترجمة في اللغة العربية..

شهربان: بما أن خالد قرر البقاء في لبنان، فانه سيدرّسكم اللغة العربية العلمية من هذه الترجمات فتنقلون المفردات الى اللغة التركية.. وهكذا تمضي دراستكم في لبنان ريثما يفرجها الله ونعرف كيف تكون الأحوال في تركيا.. أمامكم ثلاثة أعوام لدخول كلية الطب في استنبول، فلا تضيعوا هذا الوقت هباء فيما لا ينفعكم.. بل اذا كنتم جادين هنا في دراستكم فستكونون مبرّزين حتما هناك (يدخل سليمان وعلي الى الردهة)

سليمان: ان علي يريدني أن أشاهد القطار الذي أهدته اياه صديقتك هيلدا (تصعد شهربان لتأتي بالقطار.. سليمان يدور بعلي وهو يمسك بيديه فتشحط قدماه على الأرض)

علي : كان جدي يدور بي فأرفع قدمي ولا تشحط.

سليمان: ماذا تعني تشحط؟

علي: تلمس الأرض هكذا (علي يريه كيف تشحط قدماه.. تنزل شهربان الدرج الى الردهة وتناوله القطار) هذه سكة الحديد تصلها ببعضها.. تصبح دائرة.. نأخذ قطع القطار.. نجمعها.. هذه الأولى وهذه الأخيرة وبينها عربات الركاب نضعها فوق السكة.. نشغل الزمبرك في القطعة الأولى فيسير على السكة.. أتعرف أن هذا نموذج لقطار حقيقي؟

السكة الطويلة التي تمتد من استنبول الى البحر، والقطار حجمه مثل طول الردهة بثلاث مرات يركب فيه الناس حقيقة.. أليس هذا صحيح يا ماما؟

سليمان: (الى أمه) تعلمت من علي عشر كلمات عربية جديدة في خمس دقائق..

شهربان: (مازحة) ما رأيك أن تدخل المدرسة الإبتدائية مع علي فتتعلم بسرعة العربية؟

سليمان: أنا في العاشرة وعلي في السادسة فكيف نجلس على مقعد واحد؟ ان جلست في الأمام لايرى الأولاد خلفي اللوح ولا المعلم.. وان جلست في الخلف علي أن أحمل علي على كتفي.. استغنيت عن درس العربية!.. فقط إشتري لي عودا أعزف عليه حين تبكي باكيزا فأجعلها تهدأ وتنام.. الأطفال يحبون الموسيقى!..

* * *